اللغة الصوفية

الأستاذ حميدي خميسي

الرؤية الصوفية :

هناك صعوبة كبيرة تواجه من يريد الكلام عن التصوف ، وتلك الصعوبة تكمن في مدى تعقيد الرؤية الصوفية نفسها ، لأنها ليست في متناول العامة من الناس وليست من قبيل ما يمكن وصفه والتحدث عنه إلا عن طريق الإشارة والتلميح والرمز ، وهنا يصدق المثل الياباني الذي يقول : «إن السبابة التي تشير بها الى القمر ليست هي القمر» . ويقول حكيم آخر : «أنا أشير بسبابتي الى الشمس والسذج ينظرون الى سبابتي» .

وهذا يدل على أن الرؤية الصوفية ليست تجربة تتعلم عن طريق التكرار أو العادة وليست مما يمكن استدعاؤه وقت ما نشاء ، ولذلك أحيط التصوف عموماً بغلالة من الإبهام والغموض وسوء التأويل ، ولم يختلف الناس على مر العصور في عالمنا الإسلامي قدر ما اختلفوا في شأن المتصوفة فمنهم من يرى فيهم زنادقة مارقين عن الدين ، ومنهم من يراهم مشعوذين لا هم لهم إلا استحداث المخاريق والتحايل على الناس وتكلف الزهادة والورع .

إن الرؤية الصوفية الحقيقية أشبه ما تكون بالقلعة الحصينة الخارج عن أسوارها لا يعرف ما بداخلها ويكون ضحية للأفكار المسبقة ويجنح خياله الى تصور ما يمكن أن تكون عليه حياة سكان تلك القلعة وغالباً ما تكون تصوراته مشوهة مبتورة وناقصة ، كما أن ساكنيها يضنون بأسرارهم عن أن تنتهك لأن الله حباهم بقربه وأذاقهم من أفاويق معرفته فهم سكارى من

رحيق حبه ، ويرون أن البوح بهذا العلم الذي خص الله به اصفياءه جريرة من الجرائر تتلف فيها الأرواح وتسفك الدماء ، وفي ذلك يروون للحسن بن علي وقيل الرضى :

ويارب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي : أنت ممن يعبد الوثنا
ولا أستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وفي المعنى نفسه يقول ابن عربي :

«أعلم وفقك الله أن علم هذه المشاهدة القدسية التي أودعتها هذه الرسالة فريدة . وفيها من العلوم التي يجب سترها ولا يجوز كشفها إلا لأربابها :

جئتماني لتعلما سر سعدى ... تجداني بسر سعدى شحيحاً

فهذه الأسرار أجرى الله العادة عند أهل هذه الطريق ألا يهبها إلا للأمناء :

ومستخبر عن سر ليلى رددته ... بعمياء من ليلى بغير يقين
يقولون : خبرنا فأنت أمينها ... وما أنا إن أخبرتهم بأمين»

إن تعقيد هذه الرؤية أو صعوبة التعبير عنها بعبارة أدق ، تنبع من أن سالكها يعتمد الذوق والمشاهدة والاستبطان الذاتي والغوص في أعماق النفس يستجلي خباياها ، ويراقب نزواتها وطيشها كالفرس الجموح الذي يأبى الانقياد ، وهذه المعرفة الذوقية لا يمكن الاستدلال عليها بالنظر العقلي والمنطقي ، وانما هي معرفة حدسية مباشرة تتلاشى معها حدود الزمان والمكان وتضمحل ذات الإنسان حتى تفنى فناء مطلقاً في المحبوب فهي فانية فيه باقية به .

إن الوصول الى المشاهدة أو التحقيق لابد أن يتم عن طريق تجاوز الذات والأنا بكل ما تحمله الأنا من مشاعر بشرية من شأنها أن تجعل بين المتصوف وغايته غلالة كثيفة من الآثار الإنسانية كطلب الدنيا والمال والجاه ولابد لسالك هذا الطريق من التجرد من المعلوم ، وقد يلجأ الى عملية هدم حقيقية

يخوضها بعنف داخل فكره وموروثه فيشعر بوحدة ورعب قاتل وكأن الأرض سحبت من تحت أقدامه فيغدو كالمعلق بين السماء والأرض لا مكان ولا زمان ، ويخرج كيوم ولدته أمه عارياً فقيراً لا ملجأ منه إلا إليه ، يقول أبو الحسن الشاذلي في التحرر من المعلوم وقد أزمع زيارة شيخه عبد السلام بن مشيش على رأس جبل : «اغتسلت في عين بأسفل ذلك الجبل (الاغتسال هنا رمز للتحرر والتخلص من أدران النفس والجسد) وخرجت عن علمي وعملي وطلعت إليه فقيراً» .

إن هدف المنصوف المسلم الأسمى هو التخلق بأخلاق الله والقرب منه حتى يصبح حسب الحديث القدسي ، عينه التي يرى بها ورجله التي يمشي بها وأذنه التي يسمع بها أو فيما معناه ، والى جانب هذا الهدف الأسمى ولاشك في نظر المتصوف فإن هناك هدفاً آخر يكاد يجمع عليه جميع متصوفة العالم وهو (رؤية العالم كما هو على حقيقته) وقد يبدو هذا الكلام غريباً بالنسبة الى من يرون في التصوف هوساً ومرضاً أو دروشة يعج ذهن أصحابه بالخرافات والمثاليات والأساطير أو يرون أن ادراك حقائق هذا العالم لا تتم إلا عن طريق الثقة المطلقة في العقل وتخريجاته والفكر وتحليلاته ، وينسون في خضم الإنتصارات المذهلة التي حققها العقل البشري أن هناك حقائق في هذا الكون لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الذوق والمعرفة الحدسية ولا أقصد هنا الجانب اللاهوتي الميتافيزيقي وإنما حقائق كونية علمية وفيزيائية بحتة لم يستطع كبار العلماء والفيزيائيين الوصول إليها إلا عن طريق الحدس والمعرفة المباشرة بعد أن أعيتهم التجارب والبحث المنطقي والاستدلال العقلي .

إن الوصول الى إدراك العالم كما هو على حقيقته يتطلب شجاعة في مراجعة الفكر والتحرر ولو الى حين من المعلوم حتى يصل المتصوف الى درجة يصبح فيها الصمت ثورة ويغدو الكلام لا معنى له في مواجهة عنف التجربة ، وتزول تلك السدف الحالكة التي نسجها البشر بينهم وبين هذا العالم المحيط بهم من

خلال الأفكار المسبقة والايديولوجيات المعقدة التي يصبح فيها الإنسان ضحية لعالم صنعه هو بأفكاره ومخاوفه واحباطاته وجشعه وأنانيته .

ولذلك يسعى المتصوف جاهداً الى أن يتجاوز هذه الظواهر ليغوص في عمق الأشياء وأول ما يجب التحرر منه وعصيانه هو النفس بكل ما تحمله من بعد بسيكولوجي واجتماعي وتاريخي ، يقول ابن عباد في شرحه للحكم : «إن أصل جميع المعاصي الرضا عن النفس ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها ولم يسكن إليها ومن كان بهذا الوصف كان متيقظاً متنبهاً للطوارق والعوارض وبالتيقظ والتنبه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها وعند ذلك تخمد نيران الشهوة» .

إن أبسط رؤية مهما كانت سطحية الى هذا العالم بكل ما فيه من عنف وحروب وأوبئة فتاكة تسبب الإنسان في ايجادها وفقر واختلال اقتصادي وتلوث ، يخرج صاحبها بقناعة وهي أن الإنسان أخطأ طريقة وهو يسير في طريق الدمار الذاتي الشامل أو الانتحار الجماعي ، وقناعتي الشخصية التي تزداد رسوخاً كل يوم هي أن الأزمة التي يمر بها الإنسان المعاصر ليست أزمة اقتصادية أو ثقافية أو أزمة هوية وإنما هي أزمة إدراك لهذا العالم من حولنا ولابد لنا من إعادة النظر والقيام بثورة حقيقية لا عن طريق الحروب والعنف مهما كان شكله ، أو إقناع الآخرين بصدق نواياها ، وإنما الثورة الحقيقية التي ينبغي أن نقوم بها هي ثورة يقوم بها كل واحد منا داخل نفسه وأفكاره وهنا تصبح الرؤية الصوفية والسلوك الصوفي أمراً لا محيص عنه للخروج من المأزق الذي وضع الإنسان نفسه فيه ، ويغدو السلوك الصوفي موقفاً مسؤولاً من الناس والحياة لأنه فيها وخارج عنها وهو بين الناس وبعيد عنهم ، لأن المتصوف الحقيقي كما يقول أبو الحسن الشاذلي : «ليس بالرهبانية وأكل الشعير والنخالة ولا بلبس المرقعات ، وانما هو بالصبر واليقين في الهداية» .

وسيتحرر الإنسان حينئذ من العبودية مهما اختلفت مظاهرها تلك العبودية التي فهمها المتصوفة على حقيقتها يقول الإمام الجنيد : «إنك لن تكون له على الحقيقة عبداً وشيء مما دونه لك مسترق وإنك لن تصل الى صريح الحرية ، وعليك من حقيقة عبوديته بقية فإذا كنت له وحده عبداً كنت مما دونه حراً» .

إن الرؤية الجديدة التي ينبغي على الإنسان أن يتسلح بها هي رؤية تتمحور حول وعي الإنسان بمدى الترابط الأساسي لجميع ظواهر الحياة الفيزيائية البيولوجية والبسيكولوجية والثقافية فالكون كله مثلما يرى متصوفة وحدة الوجود إنسان كبير شديد التماسك والترابط وإن أي اختلال في أي عضو من أعضائه انما سيؤدي به الى اختلال كلي من ثم الى الإنهيار .

إن هذه المقدمة البسيطة التي سقتها قصدت من ورائها أن أبين الى أي مدى يصعب التعبير عن هذه الرؤية ، ومن ثم جاءت لغة المتصوفة موازية ومعبرة عن تعقيد هذه الرؤية ، وتصبح اللغة لدى المتصوف مخاضاً عسيراً يتجاوز بها حدود التواصل الى التعبير عن غير المألوف واللامحدود والمطلق وهو يسعى الى تفجيرها والخروج بها عن المواضعات الاجتماعية لتصبح لغة وجودية تحمل في حروفها ومعانيها أسرار الكون والخليقة ، ومن خلال هذه النظرة الى اللغة يصبح العالم كله نوعاً من الكتابة أو اللغة أو مصحفاً كبيراً على حد تعبير ابن عربي نفسه الى جانب المصحف الصغير الذي هو القرآن الكريم ، إن الكون كله كتاب ولكن لا يحسن قراءته إلا من أحسن تأويله فهو الدال على عظمة خالقه وهو اسم من أسمائه ، وتصبح الحروف كلها كائنات حية تعبر عن جلال الله ، منها العابد والشاكر والمسبح وهي ترمز في مجموعها الى سر الخلقية الأول ، وتصبح الكلمة هي الوجود ذاته بل إن هذا العالم لم يخرج من وجوده العيني الثابت في علم الله الأزلي الى الوجود الفعلي إلا بواسطة كلمة «كن» كما أن مقادير الأشياء وما ستؤول إليه مكتوبة أزلاً في لوح محفوظ .

ومن هنا جاءت قداسة اللغة لأنها تضفي على المعدوم وجوداً وتفضح الأسرار وتبوح بالمكنون ، بل إن الإنسان الكامل في نظر ابن عربي ليس إلا الكلمة نفسها ولولاه ما خلق هذا العالم .

إن الصوفي على يقين من أن لغة التواصل والمواضعات الاجتماعية لا تفي بغرضه ولو أنه استطاع أن يوصل ما اعتلج في فكره عن طريق الصمت لا استغنى عن اللغة . ونحس بهذا الشعور والقلق وهذه الحيرة من قصر وسيلة الإفهام وانعدام الفهم في هذه الصرخة المشجية لابن عربي . «إنا لله على هؤلاء العصاة ما أجهلهم بشرف الكلمات وأنا الذي استوى وسقط وطلع وهبط ، وارتفع ونزل ياليت شعري هل فهمت العقول اشاراتي ، هل سمعت الآذان عباراتي ، هل عرف ما وراء هذه الحروف ، هل علم ما حوته هذه الظروف ، واها لسر مكتوم ودعاء مختوم» .

والصرخة نفسها يطلقها أبو حيان التوحيدي في الإشارات الإلهية : «ما أغرب هذه الإشارة ، وما ألخص هذه العبارة ، ولكن أين الذين يدرون ويحضرون فيسمعون ؟ بل أين الذين يسمعون فيعقلون ؟ بل أين الذين يعقلون ويحصلون ما يعقلون ؟ فكم كلمة عقلت ولكنها من ذلك شردت ، فطالت عليها الحسرة والندامة ..» .

إن اللغة لدى المتصوف لم تعد شكلاً يحمل مضموناً أو وعاء يحمل محتواه ، بل أن الشكل يصبح هو المضمون والمضمون يصبح هو الشكل وتصبح الكتابة واللغة عند المتصوفة هاجساً يعبر المتصوف من خلاله عن توتره وقلقه ويريد من خلال هذه اللغة أن ينفذ الى ما وراء المألوف والمعتاد ، إنه ينطلق من الحياة ولكن ليس للعودة إليها وانما للاندفاع نحو المطلق والدائم والمدهش ، إن اللغة والكتابة تصبح في حد ذاتها تجربة لا تعبيراً عن تجربة يقول الباحث الأستاذ منصف عبد الحق : «إن ممارسة الكتابة عند المتصوفة تعني أولاً تساؤلاً عن لغتها الذاتية قبل أن تتساءل عن موضوعات تلك اللغة ومجالات توزعها وهذا يعني أنها تضع امكانياتها الخاصة موضع التساؤل» .

ثم يضيف : «ان الكتابة الصوفية حاولت خلق تباعد مع اللغة الاجتماعية (لغة التواصل) والبحث عن لغة جديدة تنقلت من المعيار الاجتماعي» .

مستويات اللغة :

لاشك أن مفهوم الفيلسوف والبلاغي والمتكلم (في علم الكلام) وموقفهم من اللغة يختلف عن مفهوم الصوفي لها ، لأن اللغة عند الصوفي تكتسي أبعاداً انطولوجية وجودية وهي ليست مجرد وسيلة للتعبير عن فكر أو شعور وإنما هي موقف في حد ذاته ، لأنها تعبر عن نوع معين من المعرفة وليس ثمت مجال آخر يمكن أن تظهر من خلاله هذه المعرفة اللدنية .

واذا كانت لغة التواصل والتواطؤ الاجتماعي عاجزة بطبيعتها الوظيفية المرتبطة بالحاجة والمصلحة عن أن تنقل هذا النوع من المعرفة ، فإن هناك مستوى آخر للغة الإيحائية الإشارية ، وهي قادرة بطبيعتها على حمل ما لا تستطيع العبارة حمله لأنها اختزال للزمن والمسافة وبما أن هذه اللغة لا تنتقل عبر مواد فإنها تخضع ولاشك للتأويل من طرف المتلقي الذي يؤول هذه اللغة وينقلها عبر مضامين يمكن أن يستوعبها الناس ، والوحي الإلهي مثلما يرى المتصوفة هو النموذج الأمثل لهذه اللغة الإيحائية الإشارية ، وقد تكون هذه اللغة حركة إيمائية وقد تكون صوتية بحيث تفسح المجال للتأويل ومن ثم يصبح التأويل مرتبطاً أشد الإرتباط بهذا النوع من اللغة بل إنه يغدو وسيلة للمعرفة والوصول الى الحقيقة ، ومن هنا كان التأويل حكراً على الخاصة من الأولياء والعلماء لأنهم أقدر على الاستنباط . والاستنباط نفسه لا يتأتى من الفهم المباشر ولا عن طريق الفكر التحليلي وإنما يأتي عن طريق المعايشة الروحية المستمرة لآي القرآن فيصبح الاستنباط بهذا المفهوم قبساً من نور يقذف في قلب العبد ، واذا كان القرآن يحض على التفكر والتلاوة فلأنها طريقتان تفضيان الى الاستباط والتأويل واذا كانت لغة القرآن لا تبوح

بمضامينها إلا عن طريق التأويل والاستنباط ويكتسي القرآن بذلك بعداً وجودياً ، فإن الكون يصبح هو الآخر موضوعاً للتأويل وهو المصحف الكبير الذي تلاه ، كما يقول ابن عربي «الحق علينا تلاوة حال كما أن القرآن تلاوة قول عندنا فالعالم حروف مخطوطة مرقومة في رق الوجود المنشور ، ولا تزال الكتابة فيه دائمة أبداً لا تنتهي» واذا كان ابن عربي قد أشار في هذا النص الى أن القرآن تلاوة قول فإنما يريد بذلك أن يميز بين ما يمكن أن يكون كلاماً وما يمكن أن يكون قولاً ، فالقرآن قول نقل إلينا في عبارة والقول المنقول في عبارة محدث ، أما الكلام الذي هو إيماء وإشارة فإنه قديم وبذلك يتجنب ابن عربي من خلال هذا التفريق بين الكلام والقول الخوض في مسألة خلق القرآن ، وقد تأثر في ذلك بأستاذه ابن مسرة الجبلي الذي يرى في خواص الحروف أن القران كلام قديم وقول محدث «.. لأن الكلام ، يقول ابن مسرة ، تسبقه الإرادة والتدبير والعلم ، وبالقول يظهر جميع ذلك ، والأمور كلها في الغيب مكتوبة محكمة مرتبة وبالكلمة أظهرها» .

ومن المعلوم أن لغة الإشارة الإيمائية التي هي علاقة خاصة بين الله ورسله ، لا يمكن أن تكون في مواد خلافاً للقول الذي ظهر وبرز في مواد ، والمقصود بالموا هي الحروف ، ومن هنا اكتسبت الحروف هي الأخرى شرفاً وبعداً وجودياً عميقاً ، ويغدو من الصعب ، من خلال هذا المنظور أن نفرق بين اللفظ ومعناه لأن شرف العبارة وشرف الحرف يتبعه شرف المعنى يقول ابن مسرة : زعم أهل العلم بالباطن أن الحروف التي في مبادئ السور أنها أصل لجميع الأشياء ومنها أظهر الله علمه وأن منها الأنبياء ، وقد قال سهل التستري : «إن الحروف هي الهباء وهي أصل الأشياء في أول خلقها ومنها تألب الأمر وظهر الملك ، وكل حرف منها آية من آياته وصفة من صفاته فمن أحاط بمعرفتها فقد اطلع على معنى من النبوة» .

كما أن للحروف إشارات ومدلولات وبعداً وجودياً ، فالألف كناية عن أول

شيء أظهره الله تعالى ، وهي إرادة الله المطلقة في خلقه فهي أس الأشياء وأولها وآخرها وعلتها وسببها ولذلك قال البعض : الألف مثال التكوين ، ومخرج العدل ، والقضاء الأول ... وكانت دالة على وحدانية الله ... والهاء إشارة الى الأزلية ، والميم مشيئة الله ، وهكذا بالنسبة الى جميع الحروف .

أما المستوى الآخر فهو لغة الرمز أو الوجود أو لغة العالم كما يسميها ابن عربي ،

إن الوجود بما حوى ليس فضاء فارغاً وإنما هو جملة من الرموز والدلالات تحمل في طياتها كنه هذا الوجود وحقيقته ، وأسرار الألوهية ، وتكتسي الأشياء في هذا الوجود عند المتصوف بعداً يتجاوز الشكل الظاهري لها ، ومن ثم تصبح تلك الأشياء فاعلة عن طريق الرمز بحيث تحضه وتدفعه عن طريق الاندماج التام بين الشاهد والمشهود ، الى الفناء التام في الأشياء فيصبح الصوفي (ذاتا لا ترى عين ما ترى) على حد تعبير ابن سبعين ، وهنا يلتقي الفنان بالصوفي في رؤيتها للأشياء عن طريق لغة الرمز لأن الرمز فضاء مفتوح لا يتقيد بقيود الدلالة المألوفة للغة وكان الفنان الصيني حسبما يذكر (الان وات) في كتابه (Le Zen) قبل أن يرسم لوحة فنية يقضي أياماً وربما شهوراً قابعاً أمام منظره الطبيعي الذي يريد أن يرسمه حتى تتلاشى المسافة بينه وبين الموضوع الذي يرسم فيصبح هو الشجرة أو المنظر ذاته ، فينقل حينئذ هذا الإحساس العميق في لحظة من لحظات النشوة العظمى في غياب الذات ، بعد أن يصبح الشاهد هو عين المشهود ، وفي تلك اللحظة من غياب الذات يتساوى الصمت والنطق أمام الجلال والبهاء ، قال النفري : «وأوقفني في النطق والصمت تارة وتارة ، وقال لي : ما وقف فيه ناطق ولا صامت فمن نطق وصمت فهو من أهل معرفتي التي عنها نطق وصمت ، وقال لي : بين النطق والصمت برزخ فيه قبر العقل وفيه قبور الأشياء» .

فالمتصوف كما يقول (Karl Vossler) : يصمت بدلاً من أن يتكلم وبإصغائه الى

الأشياء يدرك انسجام وجودها الذي لا يوصف ويتعلم منها لغة جديدة ذات مغزى عميق .

إن اللغة مهما كانت مرونتها ومستواها تبقى عاجزة أمام ثورة الصمت التي تحيل الوجود الى كلام أبدي غير منطوق وليس المقصود من الصمت هو الصمت عن الكلام المنطوق وانما هو صمت الفكر ، ذلك الصمت المبدع الذي يقبر فيه العقل كما يقول النفري ، وتحل معه السكينة ، ويعيش المتصوف لحظة الخلود الأبدية التي تتلاشى معها كينونة الزمن .

إن اللغة الصوفية هي لغة الوجود المطلق الكوني ، وهذا الوجود الكوني يفصح عن نفسه عن طريق الرمز والإشارة ، يقول عاطف جودت في كتابه الرمز الشعري : «وتغدو الكلمة في سياق هذه اللغة جوهر التكوين والمبدأ الأول الفعال والبدء الأزلي القديم وليست الكلمة الإلهية «كن» في لغة الوحي سوى رمز لأسماء كينونة الأشياء على ما هي عليه» .

فالرمز عند الصوفي يتعدد بتعدد الأشياء حتى لا يكاد يوجد شيء من الأشياء إلا ويحمل رمزاً معيناً ، فالأنثى رمز ، والخمرة رمز والساقي رمز والدرة البيضاء رمز ، ليصبح العالم كله رمزاً ، ونجد أن الصوفية قد استمدوا رموزهم واستعاراتهم الأولى من القرآن الكريم ، كرمز النور والنار ، والطائر الذي يرمز الى البعث أو خلود النفس ، وماء السماء والشجرة التي تمثل مآل الإنسان ومصيره ، وتوسع المتصوفة في استخدام الرمز حتى أصبح ميزة أساسية من مميزات لغتهم .

نشأة اللغة الصوفية :

يمكن الكلام عن ثلاث مراحل مرت بها اللغة الصوفية :

المرحلة الأولى : كانت فيها اللغة الصوفية بسيطة بساطة تجربة الصوفي نفسه تلك التجربة التي كان يساعده القرآن على تبلورها من خلال التلاوة ،

فالتجربة الصوفية وليدة التفكر في القرآن والإكثار من تلاوته واستعادة بعض ألفاظه كالمحبة والقرب والشرق ، وهنا يمكن القول أن التصوف نشأ نشأة إسلامية خالصة من خلال تدبر معاني القرآن وألفاظه ، فهناك من الآيات ما يعكس تجربة صوفية عميقة كقوله تعالى : ﴿وكشفنا عنك غطاءك اليوم فبصرك اليوم حديد﴾ وقد أحصى «لوي ماسينيون» عدداً كبيراً من المصطلحات الصوفية التي استمدها الصوفية من القرآن ومن هذه المصطلحات نذكر : ذكر ، سرؤ ، قلب ، تجل ، استماع ، استقامة ، استواء اصطناع ، صدق ، إخلاص ، رياء ، رضا ، خلق ، علم ، نفس مطمئنة ، سكينة ، توبة ، دعوة ، يقين ، الله نور ، حق . كما مكّن القرآن الكريم من خلال الاشتقاق اللغوي للإصطلاحات الواردة في القرآن ، المتصوفة من توليد كلمات مثل : خلة ، توكل ، طمس ، صورة ، لدنّي (من لدنا) .

كما استمد المتصوفة من القرآن الألفاظ المتشابهة أو المتقابلة (Antithétique) ، كالظاهر والباطن والطول والعرض ، والقبض والبسط ، والمحو والإثبات ، والصبر والشكر والفناء والبقاء ، وهذه المصطلحات لا تبوح بمحتواها إلا بعد التلاوة المتكررة ليتم إستنباط مدلولها فيها بعد .

وهذا الذي ذكرناه يدل دلالة قاطعة على أن نشأة التصوف في شكله البدائي إنما نشأ نشأة إسلامية خالصة ، وفي ذلك دفع لمن يحاول التشكيك في أصالة نشأة التصوف الإسلامي ، قبل أن يختلط المسلمون الأوائل بغيرهم من الأمم المجاورة .

المرحلة الثانية : أما لتطور اللغة الصوفية فتمثلها التجربة الصوفية عند الحلاج وابن عطاء ، وفي هذه المرحلة تبلغ التجربة الصوفية أشدها ، ويصبح لها كيانها الخاص ولغتها الخاصة بما فيها من عبارات وإشارات ورموز ، وفي هذه المرحلة (أصبحت التجربة خلاقة تأتي بمعطيات جديدة لم تكن في القرآن وتساعد الصوفي على النظر الى كل شيء نظرة تأويلية

أصيلة) كما أسلفنا . وفي ذلك يقول أحد الباحثين المعاصرين نويا اليسوعي : (إن التجربة خلقت بين الصوفي والقرآن صلة جديدة هي الاستنباط ، أي أن التجربة الروحية تلقي على النص أضواء جديدة فتصبح طريقة خاصة لفهم معانيه واستنباطها أي جرها الى الوجود من أعماق ليست إلا أعماق التجربة التي عاشها الصوفي) .

المرحلة الثالثة : وفي هذه المرحلة تبلغ الرؤية الصوفية أقصاها وتبدأ مع منتصف القرن الرابع ويمثلها أحسن تمثيل النفري ، وينتقل الصوفي من التفكر في القرآن الى مخاطبة الله ، أو ليخاطبه الله كجليس له ، وذلك من خلال كتابه المواقف ويمتزج في هذه اللغة الرمز بالإشارة ويكسوها الغموض والإنبهام وتصبح لغة مستغلة حتى على ذهن الخواص لأن الصوفي وصل من خلالها الى مرحلة ما لا ينقال ، وقال لي : (الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عني ؟) وهذا نموذج من لغة النفري التي وصلت فيه التجربة الصوفية الى أقصى حَدّ يمكن النطق عما لا ينقال والصمت عما ينقال على حد تعبيره هو نفسه :

(وأوقفني في العلوم كلها وقال لي : إطلع : فرأيت العلوم تأكل بعضها بعضا ، ورأيت الآكل كيف يأكل المأكول ثم رأيت المأكول كيف يعود فيأكل الآكل .

وقال لي : العلوم كلها آكلة مأكولة .

وقال لي : لا تبن بيتك في العلوم ، أين تبني ، إن بنيت في الظاهر ، هدمه الباطن ، وإن بنيت في الباطن هدمه الظاهر ، وإن دخلت العلوم ، فأدخلها عابراً : إنما هي طريق من طرقاتك ، فلا تقف فيه فيأتيك الذين بنوا فيه فيغروك بمنازلهم التي بنوها فيه ، فترى نوري الذي استعملتهم به طالعاً على منازلهم ، فتقيم في منازلهم ، أنسا بنوري الذي طلع عليها ، فلا تقف إلا علي ولا تقم إلا مقامك مني ، فإن شئت أن أطلع عليك نوري

أطلعت ، وإن شئت أن أرسلك الى نوري أرسلت ...) .

إن مصدر التعقيد الأساسي في لغة المتصوفة هو عمق التجربة نفسها ، لأن هذه التجربة تقوم أساساً على قطع العلائق واليأس مما في أيدي الخلائق كما يقولون ، لأن جسر التواصل والتواضع الذي هو اللغة المؤسسة لم يعد قادراً على تأدية وظيفته ، ولذلك يسعى المتصوف الى مد جسور بديلة يتمكن خلالها من إقحام المتلقي في تجربته أو على الأقل في جزء من تجربته ، ولا تسعفه في ذلك إلا الإشارة والرمز والإبهام .

ومن هنا جاء فهم الناس الخاطئ لمقاصد الصوفية ، ولم يختلفوا في شيء قدر ما اختلفوا حول المتصوفة ، فمنهم من يتهم بالزندقة والمروق ، ومنهم من يتهم بالدعوة الى سقوط التكليف ، فاضطهدوا من قبل الفقهاء أصحاب الظاهر ، والحكام في كل زمان ومكان ، واتخذ الصراع بعداً دينياً وثقافياً ظهر في خلاف حاد بين الظاهر والباطن أو بين الحقيقة والشريعة ، وهو صراع يدرك المطلع أنه في غالب الأحيان مفتعل القصد منه ضرب المتصوفة ، وقد نادى كبار المتصوفة على مر العصور بأن لا حقيقة بدون شريعة ، ولا باطن ممن لا ظاهر له ، وقد نادى بهذا المبدأ حتى أولئك الذين كانوا يوغلون في القول بالوحدة المطلقة كالإمام ابن سبعين ، فالمطلع على رسائله يجد فيها حرصه الدائم على توصية تلامذته بضرورة الجمع بين الحقيقة والشريعة .

إلا أن المتصوفة عموماً كانوا يلجؤون الى الإبهام والغموض إتقاء سطوة العامة أولاً ثم أنهم كانوا يرون أن هذه العلوم اللدنية هي ما يجب صونه والضن به على غير أهله ، ومنع العامة من الخوض فيه ، وكان هذا التعقيد على مستوى الألفاظ أولاً ثم على مستوى المعاني ، أما الكلمات والألفاظ فلأن الصوفي استحدث مدلولات جديدة لاصطلاحات كانت شائعة ومتداولة بين الفقهاء والنحاة والفلاسفة وهذه العلاقة بين الدال ومدلوله قد لا يمكن

تحديدها في كثير من الأحيان إلا من خلال الدراسة العميقة لنفسية المتصوف ومعرفة مقاصده .

ومما يزيد الأمر صعوبة أننا قد لا نبالغ اذا قلنا أنه أصبح لكل متصوف لغته وأسلوبه الخاص ومن ثم تجربته المتفردة ، وعالمه الخاص ، وهذا التفرد يزداد عمقاً اذا كان الأمر يتعلق بالكلام عن الأحوال ، والترقي الى معارج الأسماء والصفات ، والإستبطان الذاتي العميق في خبايا النفس الإنسانية وتعاريجها .

واذا كان اختلاف المتصوفة في وضع حد للمقامات ليس كبيراً فإن الخلاف في تحديد مفهوم الأحوال والواردات واللوامع ، والبوارق ، والقبض والبسط ، والفناء والبقاء ، والجمع والتفرقة ، كان عميقاً الى حد كبير حتى كاد هذا الخلاف يخلق لكل متصوف رؤيته الخاصة به ، وهنا ينبغي أن نشير الى نقطة تعد في نظرنا غاية في الأهمية وهي الفرق بين معايشة الرؤية الصوفية وبين الكلام عن طبيعة هذه الرؤية ، فالرؤية الصوفية عالمية ليست خاصة بملة دون ملة أو بأمة دون أخرى ، فهي عامل مشترك بين المسلم والهندي والمسيحي واليهودي إلا أن الكلام عن هذه الرؤية يختلف باختلاف النحلة واللغة ويسعى المتصوف حينئذ أن يخضع تلك الرؤية التي رآها أو عايشها الى أبعاد ثقافته ودينه .

فالمسلم يلف تلك الرؤية بنظرة تقديسية ، ويراها نفحة من النفحات الإلهية بينما يراها الهندي انسلاخاً عن الذات واتحاداً بالمطلق أو حلولاً للمطلق في ذاته .

أما التعقيد الثاني فإنه ناجم عن غموض في المعنى ،ولا غرابة في ذلك لأن المتصوف كان في كل عصر ذا ثقافة عالية ولم يوجد علم من العلوم إلا وكان له فيه سهم ، فالمتصوفة فلاسفة كبار ومن خلال تصوفهم وفلسفتهم أضافوا بعداً إنسانياً عميقاً للإسلام وعملوا على نشره حتى أصبح العالم الغربي